حى بن يقظان

هذه القصة اعتبرها بيلايو أبدع وأغرب ثمرات الأدب العربى

هذه القصة كتبها ابن طفيل

وفيها قال سارتون (لقد كتب ابن طفيل كتابا من أعظم كتب العصور الوسطى ابتكارا).

وقصة حى بن يقظان لمحة واحدة من حضارة ثرية خالدة لمحة من مواهب ابن طفيل تملأ صفحة بل صفحات ومع هذا قرأت القصة مرات

وقرأت كثيرا حولها فى العربية وفى بعض الترجمات الأجنبية

يقصد أن أتعلم

وأن ازداد ثقة فى تراثنا وما أعطى وما أضفى

ثم كتبت

وكان حصاد، هذا، مادة واسعة أقدم منها هذه السطور.

قصة حى بن يقظان مؤلفها ابن طفيل وتقول دائرة المعارف الاسلامية انه ابو بكر محمد بن عبدالملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسى من قبيلة قيس المعروفة: وكان يسمى كذلك الاندلسى القرطبى أو الاشبيلى مثل هذا جاء في (تاريخ الادب العربى) لبروكلمان.

اختلف الباحثون فى تاريخ ميلاده ومكان مولد أو مسقط رأسه واكتفوا بتاريخ الوفاة وإن كان الدكتور أحمد أمين حاول التقريب فقال انه ولد قبل سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٠ م وتوفى سنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥م.

وابن طفيل كان شخصية موسوعية.. كان أديبا شاعرا، وفلكيا ورياضيا، وعالما وطبيبا وفيلسوفا حكيما ومع ثراء هذه الشخصية لم يصلنا من كتبه إلا قصته (حى بن يقظان)

على الرغم من أن الاستاذ جورجى زيدان فى كتابه (تاريخ الآداب العربية) يقول ان ابن طفيل له مؤلفات عديدة والدكتور أحمد أمين يقول ان ابن طفيل صنف فى الطب كتبا وأنه كانت له آراء مبتكرة فى الفلك.

وبعض الكتاب يقول ان ابن طفيل له كتاب (اسرار الفلسفة الإشراقية) ولكن (كارادى فو) يقول إن كتاب اسرار الفلسفة الاشراقية هو قصة حى بن يقظان نفسها.

ومضاهاة مخطوطة هذا الكتاب الموجودة فى مكتبة الاسكوربال تؤكد انه صورة (ناقصة) من قصة حى بن يقظان

أما فى الفلك فيعزز سبقه فيه، ما جاء على لسان ابن رشد فى شروحه الوسطى على كتاب ما بعد الطبيعة.

وقصة (حى بن يقظان) سجل الدكتور أحمد أمين موجزا لها أورده عن المستشرق غرسية غومس يروى أنه فى جزيرة مهجورة من جزر الهند وفى وسط ظروف طبيعية طيبة، وُلد طفل من بطن ام تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين دون أن يكون له أم أو أب.

وفى قول آخر أن تيار البحر حمله إلى هذه الجزيرة فى تابوت أحكمت أمه إغلاقه بعد أن أروته من الرضاع.. وكانت أميرة مضطهدة فى جزيرة مجاورة فاستودعت ابنها الأمواج حتى تنجيه من الموت.

وهذا الطفل هو حى بن يقظان.. فتبنته غزالة وأرضعته وصارت له أما ثانية أو أما بديلة.. وأخذ يلاحظ ويتأمل وكان الله قد وهبه ذكاءً وقادا فعرف كيف يقوم بحاجات نفسه، بل واستطاع أن يصل بالملاحظة والتفكير الى أن يدرك بنفسه أرفع حقائق الطبيعة وما وراءها. وقد وصل إلى ذلك بطريقة الفلاسفة، بطبيعة الحال. وأدت به هذه الطريقة إلى أن يحاول عن سبيل الإشراق الفلسفى الوصول إلى الاتحاد الوثيق بالله. وقصة حى بن يقظان مع الغزالة حملها ابن طفيل من الرموز واللطائف ماجعلها شيقة رقيقة.

وقد صور ابن طفيل الإنسان الذى هو رمز العقل فى صورة (حى) (واليقظان هو الله). وقد رمى ابن طفيل من ورائها إلى بيان الاتفاق بين الدين والفلسفة وهو موضوع شغل أذهان مفكرى المسلمين كثيرا وهؤلاء المفكرون كانوا على مذهب الأفلاطونية الحديثة.

وأفلوطين صاحب هذه الفلسفة مصرى صعيدى وهو بالطبع غير أفلاطون اليونانى.

ولم تبلغ قصته من الذيوع ما بلغته قصة (حى بن يقظان).

وكثر محللوها ودارسوها ومترجموها.

ترجمها الى العبرية موسى الارجولى سنة ١٣٤١ م

وترجمها الى اللاتينية بوكوك Edward Pococke سنة ١٠٨٢ هـ ، سنة ١٦٧١ م وترجمها من اللاتينية الى الانجليزية جورج كيث لكى يقرأها الكويكرز بين ما يقرءونه من كتب التقى والورع.

وقد ترجمت الى الألمانية والهولندية والفرنسية والاسبانية والفارسية والروسية ما بين القرن (١٧-٢٠) ومنها نسخ خطية فى مكتبة اكسفورد ومكتبة الجزائر، والمتحف البريطانى ودار الكتب المصرية بالطبع.

لقد كان تأثير هذه القصة عظيما فى مفكرى الأفرنج، ومنهم من نسج على منوالها، تأثر بها القديس «توما»، و«اسبينوزا» وظهر أثرها واضحا فى قصة «اندريو» التى وضعها «بلتاسار غرانسيان» فى القرن السابع وكذلك فى قصة «روبنسون كروز» ونالت القصة اعجاب رجال الفكر والفلسفة والتاريخ، كالفيلسوف «ليبنتز» و«مونك» و«رينان» و«غوتييه»، وغيرهم).

وأن كنت أخالف الاستاذ قدرى حافظ طوقان فى جزئية هى تأثر قصة روبنسون كروزو بقصة حى بن يقظان،.. فإن قصة روبنسون كروز تأثرت بقصة «الملاح الغريق» من أدب مصر القديمة كما تأثرت بها الإلياذه وتأثرت بها فى العربية (السندباد البحرى) وقد فصلت هذا فى كتابى (شخصية مصر).

وقد قارن الدكتور أحمد أمين بين (حى بن يقظان) لابن سينا وابن طفيل والسهروردى.

أما الاستاذ تيسير شيخ الأرض فقد قدم فى كتابه (ابن طفيل) دراسة طيبة للقصة من حيث:

المضامين- الأسلوب المقابلة أو المقارنة بين الآراء الفلسفية فيها وبين آراء الفلاسفة الآخرين.

كما تناول آراء بن طفيل فى

- رأى الفارابى والرد عليه.
- رأى ابن سينا والرد عليه.

- رأى الغزالى والرد عليه.
- رأى ابن الصايغ والرد عليه.

وقد خلقت قصة (حى بن يقظان) حركة قوية بين اليهود فقد اقتبس موسى بن ميمون أكبر فلاسفة اليهود آراء برمتها من قصة حى بن يقظان وخاصة فى حديثه عن قدم العالم وحدوثه وعن صفات الله عزوجل وعن مكان الشريعة فى تهذيب الناس إلى الحد الذى دفع أوبرفغ إلى تأكيد تأثر موسى بن ميمون بفلسفة ابن طفيل.

لقد كتبت فى أحد

أعداد هذه المجلة عن كتاب جان جاك روسو (اميل) وفيه نادى روسو بالعودة إلى الطبيعة وهو فى هذا متأثر بابن طفيل فى قصته (حى بن يقظان) وقد كتبها قبل روسو بستة قرون.

لقد كان غيور بريتيوس يسمى ابن طفيل (الحكيم الطبيعى الذى علم نفسه) .

ويقول الاستاذ قدرى حافظ طوقان فى كتابه (العلوم عند العرب).

كما كان ايشهورن الذى نقل قصة (حى بن يقظان) إلى الألمانية يسميها (الانسان الطبيعى أو قصة حى بن يقظان).

وقصة (حى بن يقظان) فى تسلسلها عالجت.

* مسألة النشوء الطبيعى (الفطرة الفائقة).

* مسألة التطور والارتقاء.

* مسألة علاقة الفرد بالمجتمع.

(الأخلاق عند ابن طفيل (ألا يعترض الانسان الطبيعة فى سيرها) وتستأدى الاخلاق الكريمة صاحبها أن يزيل العوائق التى تعترض طريق الانسان بل النبات والحيوان.

وأحاله متأثرا فى هذا بقول الرسول الكريم فى حديثه الشريف (أماطتك الأذى من الطريق، صدقة)

وفى قصة (حى بن يقظان) إشراقات وتجليات وتأملات ورياضيات روحية ونفسية إلى جانب البدنية.

وحديث عن النفس.. والسعادة.. والعالم قدمه وحدوثه وصلة الانسان بالله. النبوة والاديان.. والفرد والمجتمع.. والعامة والخاصة.. والحكمة والشريعة.. والزهد والتصوف.. والصلة بين الدين والفلسفة.. والسببية.. والمكان والزمان.. والهيولا والصورة.. والصمت والحجم والثقل.. والحواس. والحرارة والضوء

وعلم الحياة.. وعلم الجغرافيا.. وعلم الموسيقى والرياضيات.. والمنطق..ونظرية المعرفة.

وهكذا تمثل قصة (حى بن يقظان) مكتبه علمية وقيم فلسفية وفنية نفسية.

إن ضياع كتبه الأخرى تمثل خسارة مزدوجة له ولنا ولكن حسبه وحسبنا هذا الأثر الذى ترك فى الشرق والغرب من خلال قصته البارعة والرائعة والممتعة (حى بن يقظان).